# التمهيد

وفيه مقاطع:

# المقطع الأول

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اعْلَمْ - رَحِمَكَ اللَّهُ - أَنَّ التَّوحِيدَ هُوَ إِفْرَادُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالعِبَادَةِ. وَهُوَ دِينُ الرُّسُلِ الَّذِي أَرْسَلَهُم اللَّهُ بِهِ إِلَى عِبَادِهِ، فَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَى قَوْمِهِ لَمَّا غَلَوْا فِي الصَّالِحِينَ: وَدًّا، وَسُوَاعًا، ويَغُوثَ، وَيَعُوقَ، وَنَسْرًا.

وآخِرُ الرُّسُلِ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَهُوَ الَّذِي كَسَّرَ صُوَرَ هَؤُلاءِ الصَّالِحِينَ، أَرْسَلهُ اللَّهُ إِلَى أُنَاسٍ يَتَعَبَّدُونَ، وَيَحُجُّونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ، وَيَذْكُرُونَ اللَّهَ، وَلَكِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ بَعْضَ المَخْلُوقِينَ وَسَائِطَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللهِ - عزَّ وجل -، يَقُولُونَ: نُرِيدُ مِنْهُم التَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ - تَعَالَى -، وَنُرِيدُ شَفَاعَتَهُمْ عِنْدَهُ، مِثْلَ: المَلائِكَةِ، وَعِيسَى، وَمَرْيَمَ، وَأُنَاسٍ غَيْرِهِمْ مِن الصَّالِحِينَ.

فَبَعَثَ اللَّهُ - تَعَالَى - مُحَمَّدًا ﷺ يُجَدِّدُ لَهُمْ دِينَهُمْ، دِينَ أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ، وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّ هَذَا التقَرُّبَ وَالاعْتِقَادَ مَحْضُ حَقِّ اللَّهِ - تَعَالى -، لا يَصْلُحُ مِنْهُ شَيْءٌ لِغَيْرِهِ لا لِمَلَكٍ مُقَرَّبٍ، وَلا نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، فَضَلًا عَنْ غَيْرِهِمَا.

## الشرح:

قوله: (اعْلَمْ)، هذه الكلمة تفيد شحذ الانتباه، وجذْبَ الاهتمام لما سيقال بعدها، فكأنه يقول: هناك أمر مهم؛ اعلمه، وألقِ له سمعك، وأحضر له قلبك.

وقوله: (رَحِمَكَ اللهُ): هذا دعاء لك بالرحمة؛ لأن العلم مبنيٌّ على الرحمة، ولهذا كان العلماء يُرَوُّون تلاميذَهم الحديث المسلسل بالأولية وهو حديث: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**»(١).

**وهذا المقطع تضَمَّن مبحثين:**

### المبحث الأول: تعريف التوحيد:

التوحيد لغة: مصدر وحَّد يوحِّد توحيدًا، إذا جعل الشيء واحدًا؛ ولهذا نقول أحيانا: توحيد المجلس أو توحيد الكلام، أي نجعل المجلس واحدًا لا يكون متفرقًا، ونجعل الكلام واحدًا غير متفرق، فيتكلم هذا ويتكلم هذا(٢).

**اصطلاحا**: هو إفراد الله - تعالى - بربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته.

أو يقال: هو إفراد الله - تعالى - بما يختص به ويجب له.

**وخص الشيخُ التوحيدَ بتوحيدِ العبادة (الألوهية) لأمور:**

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الألباني.

(٢) ينظر: «معجم اللغة العربية المعاصر» (٣/ ٢٤٠٩).

**الأول**: أن توحيد العبادة أهم أنواعه، وهو مقصد الرسالات، وموضع الخصومات.

**الثاني**: أن توحيد العبادة يتضمن توحيد الربوبية، والأسماء والصفات.

فمن توجَّه إلى الله، وصرف له جميع أنواع العبادة؛ لم يعبدْه إلا لإيمانه بأنه الرَّبُّ الخالق المالك المدبر، وإيمانه بما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى، وبهذا يكون توحيد العبادة متضمِّنا للنوعين الآخرين (الربوبية، والأسماء والصفات).

**الثالث**: أن موضوع الكتاب ومقصودَه توحيدُ العبادة.

ونظير هذا ما ورد في الحديث «**الحَجُّ عَرَفَةُ**»(١)، مع أن الحجَّ فيه شعائر أخرى غير الوقوف بعرفة، لكِنْ حصَره في عرفة؛ لأنه آكد أركانه.

- خصائص توحيد العبادة:

**يختص (توحيد العبادة) بخصائص؛ منها:**

١ - أنه الغاية من خلق الجن والإنس، قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[الذاريات:٥٦].

٢ - أنه المقصود الأعظم من إرسال الرسل وإنزال الكتب، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ**﴾

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٨٨٩)، والنسائي (٣٠١٦)، من حديث عبد الرحمن بن يعمر، وصححه الألباني.

[الأنبياء: ٢٥]، وقال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل: ٣٦].

**٣-** أنه أول واجب على المكلف، وهو مفتاح دخوله في الإسلام: أن يوحد الله بالألوهية.

**٤-** أنه أول ما يُدعى إليه الناس، كما أوصى النبي ﷺ معاذا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما بعثه إلى اليمن، قال: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**»، وفي لفظ: «**إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ**»[(١)].

**٥-** عِظَم خطرِه وأثره؛ فالمخالفة في هذا النوع توقع المرء في الشرك وهو أكبر المهالك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء: ٤٨].

ومعلوم أنَّ الشرك يخلِّد صاحبه في النار، ولا يقبل الله معه شيئا من الأعمال؛ قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[الفرقان: ٢٣]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، فالآثار خطيرة وعظيمة وجليلة.

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٤٩٦) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٩).

وسبق بيان معنى التوحيد مفصلا في أوائل شرح كتاب التوحيد، وهل ورد هذا اللفظ في الكتاب والسنة؟، والعلاقة بين التوحيد وكُلٍّ من الإسلام والعقيدة.

## المبحث الثاني: دعوة الرسل إلى التوحيد ومحاربة الشرك:

**وفيه ثلاثة مطالب:**

### المطلب الأول: أول الرسل وآخرهم:

أول الرسل هو نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أما الأنبياء فأولهم آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

والدليل على أن أولهم نوح، قولُه تعالى: ﴿**إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ**﴾ [النساء: ١٦٣].

وفي الصحيح - في حديث الشفاعة - أن الناس يأتون إلى نوح فيقولون: «**يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ**»(١).

وأمَّا آخر الأنبياء والمرسلين، فهو محمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿**مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ**﴾ [الأحزاب: ٤٠].

### المطلب الثاني: دعوة الرسل:

دعوة الرسل واحدة من أولهم إلى آخرهم، كلهم يقول: ﴿**يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ**﴾ [الأعراف: ٥٩، ومواضع أخرى]، كلهم يدعو إلى (لا إله إلا

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٤٧١٢) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الله)، إلى توحيد العبادة، إلى إفراد الله بالعبادة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال ﷺ: «الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»(١).

والإخوة لعَلات - بفتح العين المهملة وتشديد اللام - هم الإخوة لأب، أبوهم واحد، وأمهاتهم شتَّى.

فهكذا الأنبياء يجتمعون في أصل واحد، وهو: الدعوة إلى إفراد الله بالعبادة، والتحذير من الشرك، ويختلفون في التشريعات، ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

## المطلب الثالث: تاريخ الشرك:

أول شِرك وقع في تاريخ البشرية شركُ قومِ نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كما جاء عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، قال: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أنِ انصِبُوا إلى مجالسهم التي

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٤٤٣) واللفظ له، ومسلم (٢٣٦٥).

كانوا يجلسون فيها أنصابا، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبَد، حتى إذا هلك أولئك، ونُسِي العلم، عُبدت»[1].

وقال محمد بن قيس: «كانوا قوما صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم: لو صوَّرناهم كان أشوقَ لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوَّروهم، فلما ماتوا، وجاء آخرون دَبَّ إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسقَون المطر فعبدوهم»[2].

فهذا تاريخ بدء الشرك في البشرية، كان بسبب التصوير والغُلُو في الصالحين، وكان الباعثُ الأول: تذكرهم والنشاط للعبادة عند رؤية صورهم، وانظر إلى مكر الشيطان وخطواته، جاءهم من باب التحفيز على العبادة، ثم جاء الجيل الذي يليه فوقعوا في عبادتهم!.

ثم استمر الشرك بعد قوم نوح في قوم عاد وثمود وإبراهيم ولوط ويوسف وشعيب وموسى وعيسى، كان الشرك موجودا، وكان الله - عز وجل - يبعث في هذه الأمم رسلا يدعون أقوامهم لعبادة الله وترك الإشراك به؛ ولهذا حين نقرأ القرآن ونتدبره نجد أن دعوة الأنبياء واحدة، كل نبي يقول: ﴿**يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ**﴾[الأعراف: ٥٩، ومواضع أخرى].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٩٢٠).

(٢) تفسير الطبري (٢٣/ ٣٠٣).

وكان العرب قبل البعثة المحمدية على الحنيفية ملة إبراهيم ﷺ.

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان الناس بعد إسماعيل على الإسلام، فكان الشيطان يُحدِّث الناسَ بالشيء، يريد أن يردهم عن الإسلام، حتى أدخل عليهم في التلبية: لبيك اللّٰهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك، قال: فما زال، حتى أخرجهم عن الإسلام إلى الشرك(١).

وكان أول من غيَّر دين إبراهيم الخليل ﷺ: عمرو بن لحي الخزاعي؛ وجد الأصنام التي كانت تُعبَد في زمن نوح وإدريس، وهي وَدٌّ وسواعٌ ويغوثُ ويعوقُ ونسرٌ، فحمَلَها إلى مكة ودعا إلى عبادتها، فانتشرت بسبب ذلك عبادة الأصنام في العرب. وأخبر النبيُّ ﷺ أنه رآه يجر أمعاءه في النار(٢).

وكان من العرب من يعبد الجن، قال تعالى: ﴿**وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ**﴾ [الأنعام: ١٠٠]، وقال جل وعلا: ﴿**بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ**﴾ [سبأ: ٤١].

وعَبَدَ كثيرٌ منهم الأصنام، كاللات والعزى وهُبَل ووَدٍّ وسواعٍ ويغوثَ وغيرها(٣).

---

(١) «مسند البزار» (٧١٨٨).

(٢) ينظر: صحيح البخاري (كتاب المناقب، باب قصة خزاعة)، ومسلم (٢٨٥٦).

(٣) ينظر: «كتاب الأصنام» لابن الكلبي. وتوسع في ذلك جواد علي في «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام».

فكان الأمر كما قال الشيخ: «فَبَعَثَ اللَّهُ - تَعَالَى - مُحَمَّدًا ﷺ يُجَدِّدُ لَهُمْ دِينَهُمْ، دِينَ أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ، وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّ هَذَا التقَرُّبَ وَالاعْتِقَادَ مَحْضُ حَقِّ اللَّهِ - تَعَالى - ، لا يَصْلُحُ مِنْهُ شَيْءٌ لِغَيْرِهِ لا لِمَلَكٍ مُقَرَّبٍ، وَلا نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، فَضَلاً عَنْ غَيْرِهِمَا».

●●●

# المقطع الثاني

**قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:**

وَإِلَّا فَهَؤُلاءِ الْمُشْرِكُونَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الخَالِقُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّهُ لا يَرْزُقُ إِلَّا هُوَ، وَلا يُحْيِي وَلا يُمِيتُ إِلَّا هُوَ، وَلا يُدَبِّرُ الأَمْرَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّ جَمِيع السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَالأَرَضِينَ السَّبْعِ وَمَنْ فِيهِن كُلَّهُمْ عَبِيدُهُ، وَتَحْتَ تَصَرُّفِهِ وَقَهْرِهِ.

فَإِذَا أَرَدت الدَّلِيلَ عَلَى أَنَّ هَؤُلاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَاتَلَهُم رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَشْهَدُونَ بِهَذَا فَاقْرَأْ عَلَيْهِ: ﴿**قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ**﴾[يونس: ٣١]، الآيَةَ.

وَقَوْلَه تَعالى: ﴿**قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ**﴾، إِلى قَوْلِهِ: ﴿**فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ**﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الآياتِ.

إِذَا تَحَقَّقْتَ أَنَّهُمْ مُقِرُّونَ بِهَذَا، وَأَنَّهُ لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي التَوْحِيدِ الَّذِي دَعَتْ إِلَيْهِ الرُّسُلُ وَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَعَرَفْتَ أن التَّوحِيدَ الَّذِي جَحَدُوهُ هُوَ تَوْحِيدُ العِبَادَةِ، الَّذِي يُسَمِّيهِ الْمُشْرِكُونَ فِي زَمَانِنَا الاعْتِقَادَ، وَكَانُوا يَدْعُونَ اللَّهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى لَيْلًا وَنَهَارًا، ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الْمَلائِكَةَ لأَجْلِ صَلاحِهِمْ، وَقُرْبِهِمْ مِن اللَّهِ - عزَّ وجل -؛ لِيَشْفَعُوا لَهُمْ، أَوْ يَدْعُو رَجُلًا صَالِحًا مِثْلَ اللاَّتِ، أَوْ نَبِيًّا

مِثْلَ عِيسَى، وَعَرَفْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَاتَلَهُمْ عَلَى هَذَا الشِّرْكِ وَدَعَاهُمْ إِلَى إِخْلاَصِ العِبَادَةِ لِلَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]، وَقالَ: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ [الرعد: ١٤]، الآيَةَ، وَتَحَقَّقْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَاتَلَهُمْ؛ لِيَكُونَ الدُّعَاءُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَالذَّبْحُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَالنَّذْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَالاسْتِغَاثَةُ كُلُّهَا بِاللَّهِ، وَجَمِيعُ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ كُلُّهَا لِلَّهِ، وَعَرَفْتَ أَنَّ إِقْرَارَهُمْ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الإِسْلاَمِ، وَأَنَّ قَصْدَهُم الْمَلاَئِكَةَ، أَوْ الأَنْبِيَاءَ، أَوْ الأَوْلِيَاءَ - يُرِيدُونَ شَفَاعَتَهُمْ وَالتَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ بِذَلِكَ - هُوَ الَّذِي أَحَلَّ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، عَرَفْتَ حِينَئِذٍ التَوْحِيدَ الَّذِي دَعَتْ إِلَيْهِ الرُّسُلُ، وَأَبَى عَنِ الإِقْرَارِ بِهِ الْمُشْرِكُونَ. وَهَذَا التَّوْحِيدُ هُوَ مَعْنَى قَوْلِكَ: (لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ).

فَإِنَّ الإِلَهَ عِنْدَهُمْ هُوَ الَّذِي يُقْصَدُ لأَجْلِ هَذِهِ الأُمُورِ، سَوَاءً كَانَ مَلَكًا، أَوْ نَبِيًّا، أَوْ وَلِيًّا، أَوْ شَجَرَةً، أَوْ قَبْرًا، أَوْ جِنِّيًّا، لَمْ يُرِيدُوا أَنَّ (الإِلَهَ) هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُدَبِّرُ؛ فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ ذلِكَ لِلَّهِ وَحْدَهُ كَمَا قَدَّمْتُ لَكَ، وَإِنَّمَا يَعْنُونَ بِـ (الإِلَهِ) مَا يَعْنِي الْمُشْرِكُونَ فِي زَمَانِنَا بِلَفْظِ (السَّيِّدِ)، فَأَتَاهُم النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُوهُمْ إِلَى كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، وَهِيَ (لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ). والْمُرَادُ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ مَعْنَاهَا لاَ مُجَرَّدُ لَفْظِهَا. وَالْكُفَّارُ الْجُهَّالُ يَعْلَمُونَ أَنَّ مُرَادَ النَّبِيِّ ﷺ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ هُوَ إِفْرَادُ اللَّهِ - تَعَالَى - بِالتَعَلُّقِ، وَالْكُفْرُ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ لَمَّا قَالَ لَهُمْ: (قُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ) قَالُوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]. فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ جُهَّالَ الْكُفَّارِ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ، فَالْعَجَبُ مِمَّنْ يَدَّعِي الإِسْلاَمَ وَهُوَ لا يَعْرِفُ مِنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ مَا عَرَفَ جُهَّالُ الْكُفَّارِ، بَلْ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ التَّلَفُّظُ

بِحُرُوفِهَا مِنْ غَيْرِ اعْتِقَادِ الْقَلْبِ لِشَيءٍ مِنَ المَعَانِي، وَالحَاذِقُ مِنْهُمْ يَظُنُّ أَنَّ مَعْنَاهَا: لا يَخْلُقُ، وَلا يَرْزُقُ، وَلا يُدَبِّرُ الأمر إلَّا اللَّهُ. فَلا خَيْرَ فِي رَجُلٍ جُهَّالُ الْكُفَّارِ أَعْلَمُ مِنْهُ بِمَعَنى (لا إِلَهَ إلَّا اللَّهُ).

## الشرح:

**تضمن هذا المقطع أربعة مباحث:**

المبحث الأول: حقيقة شرك الأولين، والدليل على ذلك:

قرَّر الشيخ أن المشركين الذين بُعث إليهم الرسول ﷺ كانوا يُقِرُّون بأصل توحيد الربوبية، وهو إفراد الله - تعالى - بالخلق والرزق والتدبير، وأن شركهم كان في توحيد العبادة (الألوهية).

وهذه الحقيقة قرَّرَها القرآن في مواضع كثيرة، ذكر الشيخ موضعين منها:

**الأول**: قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[يونس: ٣١].

**والثاني**: قوله: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٨٥ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٨٧ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

**ويُزاد على ما ذكره:**

١ - قول الله - تعالى -: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ٦١ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ٦٢ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[العنكبوت: ٦١ - ٦٣].

٢- وقوله - عز وجل -: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[الزخرف: ٨٧].

وينظر - أيضا -: [لقمان: ٢٥]، [الزمر: ٣٨]، [الزخرف: ٩].

ومن المواضع التي تُجلِّي هذه الحقيقة، قولُه تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[يوسف: ١٠٦]، فقد أثبت لهم إيمانا بالله، وشركا به!.

والمعنى أنهم يؤمنون بربوبية الله - تعالى -، ويشركون به في عبادته.

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في هذه الآية: «مِن إيمانهم، إذا قيل لهم: مَن خلق السماء؟ ومَن خلق الأرض؟ ومَن خلق الجبال؟ قالوا: الله. وهم مشركون!»(١).

وقال قتادةُ فيها: «إنك لست تلقى أحدا منهم إلا أنبأك أن الله ربه، وهو الذي خلقه ورزقه، وهو مشرك في عبادته»(٢).

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٢٨٦).

(٢) السابق (١٦/ ٢٨٨).

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، قال قتادة في قوله ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: «أي تعلمون أنَّ الله خلَقكم وخلَق السموات والأرض، ثم تجعلون له أندادًا!»(١).

وينبغي أن يُعلَم أنَّ توحيد الربوبية أمر فُطِرَ عليه الناس؛ ولهذا لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورةٌ على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره، كما قال الله - عز وجل - على لسان رسله: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[إبراهيم: ١٠].

ولا يُعرف أحدٌ على مَرِّ التاريخ أنكر هذا النوع من التوحيد، وإنما هناك من كابر وتظاهر بالإنكار؛ مثل فرعون الذي طغى وتكبر، ونازع وتجبر، وقال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، ولكن هذا كان مكابرة في الظاهر، والواقع بخلاف ذلك، كما قال الله - عز وجل - عنه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾، أي: في الظاهر ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، أي: في الباطن.

وفي الأعصار المتأخرة ظهر الشيوعيون الذين قام مذهبهم على مبدأ (لا إله، والحياة مادة!)، لكنهم في قرارة أنفسهم أيضا يُقِرُّون بوجود الرب جَلَّجَلَالُهُ.

---

(١) السابق (١/ ٣٧٠).

## المبحث الثاني: هل يكفي الإقرار بتوحيد الربوبية في الدخول في الإسلام؟

قرَّر الشيخ أن إقرارهم بأصل توحيد الربوبية لم ينفعهم، ولم يدخلهم في التوحيد الذي دعاهم إليه الرسول ﷺ، وهو توحيد العبادة، وقاتلهم الرسول ﷺ على ذلك.

والرُّسُل الذين بعثهم الله – عز وجل –؛ لم يكونوا يدعون إلى هذا النوع من التوحيد أصالة، وإنما كانت دعوتهم ومخاطبتهم لأقوامهم في توحيد الألوهية، ومن الخطأ اعتقادُ أن توحيد الربوبية هو الغاية من التوحيد!.

**وهنا مسألتان:**

### المسألة الأولى: حقيقة توحيد الألوهية:

وهو إفراد الله بأفعال العباد؛ كالدعاء، والسجود، والذبح، والنذر، ونحو ذلك.

فالضابط في التمييز بين توحيد الربوبية والألوهية: أن تنظر إلى الفعل هل هو من أفعال الله، أو من أفعال العبد؟، فإن كان من أفعال الله، فهو من توحيد الربوبية، وإن كان من أفعال العباد فهو من توحيد الألوهية.

فمثلا: من دعا وليًّا أن يشفيه من مرضه؛ لأن له قدرة على ذلك، فهذا قد وقع في الشرك في الربوبية والألوهية؛ لأن اعتقاده أن هذ الولي يشفي المريض شرك في الربوبية، لأن هذا الفعل (شفاء المرضى) على جهة الاستقلال من أفعال الله – تعالى –.

ودعاؤه إياه شرك في الألوهية؛ لأن هذا الفعل (الدعاء) من أفعال العباد.

واستدل الشيخ على ذلك بقوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا**﴾ [الجن: ١٨]. وفي المراد بقوله: ﴿**ٱلْمَسَٰجِدَ**﴾ أقوالٌ لأهل العلم؛ منها:

**القول الأول**: أن ﴿**ٱلْمَسَٰجِدَ**﴾ جمع مسجِد على وزن مَفعِل، وهو اسم مكان بمعنى: موضع السجود، أي: الأماكن التي بُنيت للصلاة وذكر الله - تعالى -.

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبِيَعَهم أشركوا بالله، فأمر الله نبيه ﷺ أن يُوَحِّدُوه وحدَه[1].

فالمعنى على هذا القول: ﴿**وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ**﴾، أي: أماكن العبادة المخصصة للصلاة والعبادة.

**القول الثاني**: أن المراد بـ﴿**ٱلْمَسَٰجِدَ**﴾ أعضاء السجود.

قال سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: نزلت في أعضاء السجود[2]. يعني هذه الأعضاء لله فلا تسجدوا بها لغيره، وعلى هذا القول تكون جمع مسجَد بفتح الجيم.

وكما في الحديث عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النبي ﷺ قال: «**أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ**»[3].

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٣/ ٦٦٥).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٤).

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٨١٢)، ومسلم (٤٩٠).

وقريبٌ من هذا القول مَن جعَل ﴿ٱلْمَسَٰجِدَ﴾ جمع مسجَد مصدرا ميميا بمعنى السجود، يعني وأن السجود لله لا يكون لغيره.

وعلى كُلٍّ، فالمساجد المبنية أو الأماكن التي يُعبد الله فيها، وكذلك الأعضاء التي تكون لهذه الهيئة، وهي السجود، كلها إنما تكون لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا لغيره؛ فلا يجوز أن يُدعى أو أن يُعبد مع الله غيره.

وقوله: ﴿فَلَا تَدْعُواْ﴾: يشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة. دعاء المسألة بمعنى الطلب والسؤال، ودعاء العبادة: جنس العبادات، كما قال ﷺ: «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**»(١).

وقوله: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾، جاء لفظ ﴿أَحَدًا﴾ نكرة في سياق النهي فأفاد العموم، أي: جميع من يعبد من دون الله، لا ملَك مقرب، ولا نبي مرسل، فضلا عن غيرهما.

- أسماء توحيد الألوهية:

توحيد الألوهية له عدة أسماء ومن أشهرها: (توحيد الألوهية)، و(توحيد العبادة)،و(توحيد الإرادة والقصد).

- أهميته:

توحيد الألوهية أهم أنواع التوحيد، فمن أجله أُرسلت الرسل، وأُنزلت الكتب، وسُلَّت سيوفُ الجهاد، وقامت سوق الجنة والنار، وهو الغاية من خلق

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، من حديث النُّعمان بن بَشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٤٠٧).

الجن والإنس، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، وقبول الأعمال متوقف عليه.

وهو يتضمَّن جميع أنواع التوحيد، فمن اعتقد الألوهية فهو مُعتقِد لغيره من الربوبية والأسماء والصفات.

**المسألة الثانية: العلاقة بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية:**

توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية؛ فمن أقر بالله ربًّا خالقا مالكا رازقا مُدَبِّرا، لزم من ذلك أن يُوحِّدَه ويُفردَه في العبادة.

فقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، فيه إشارة إلى أنَّ الإقرار بربوبيته جَلَّجَلَالُهُ، يلزم منه الإقرار باستحقاقه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ للعبادة؛ ولهذا قال: ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾، فهم إن ﴿سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧]، لكن مع ذلك أشركوا بالله غيرَه، فالله - عز وجل- قرَّرَهم على توحيد العبادة بإقرارهم بتوحيد الربوبية، بأفعال الله: الخلق والرزق ونحو ذلك.

وهذه الآية أوَّلُ أمر في القرآن، من يقرأ القرآن مِن أوَّله فأول أمر يأتيه في كتاب الله هو هذا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ ممهَّدَة، ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ سقفا محفوظا، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾،

فمن كانت هذه صفته فلا يليق أن يكون له نِدٌّ وشريك ﴿**فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]، أنه لا نِدَّ له يستحق العبادة ولا نظير له، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بيده الخلق ويُدبِّر الأمور؛ فهو الرازق المالك المتصرف، فلا يصح أن يُجعل له شريك في العبادة. **وهذا منهج قرآني: الاستدلال على توحيد العبادة بتوحيد الربوبية.**

قال تعالى: ﴿**ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ**﴾ [الأنعام: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿**ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ٦٣ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ**﴾ [الزمر: ٦٢ - ٦٤]، وقال تعالى عن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ**﴾ [آل عمران: ٥١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «باب توحيد الإلهية هو: توحيد الربوبية، فإن أوَّلَ ما يتعلق القلب يتعلق بتوحيد الربوبية، ثم يرتقي إلى توحيد الإلهية، كما يدعو الله - سبحانه - عباده في كتابه بهذا النوع من التوحيد إلى النوع الآخر، ويحتَجُّ عليهم به ويقرِّرُهم به، ثم يخبِرُ أنهم ينقُضونه بشركهم به في الإلهية»[1].

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٣١).

**والخلاصة أنَّ:** توحيد الألوهية يتضمَّن توحيد الربوبية، وتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية.

فمن حقَّقَ توحيد الألوهية، فهو لم يعبد الله إلَّا وهو يعتقد أن له ربًّا خالقا مُدَبِّرا. ومن وحَّدَ الله في ربوبيته فهذا يستلزم أن يوحد الله في ألوهيته.

توحيد الربوبية يتعلَّق بالأمور العلمية، وتوحيد الألوهية يتعلق بالأمور العملية.

- تنبيه هام:

لا يُفهم مما سبق التزهيد في توحيد الربوبية، بل هو أصل من أصول التوحيد لا يصح إسلام العبد إلا به.

وقد يقع الشرك في الربوبية، بجعل شريك مع الله - تعالى - في أفعاله، كالخلق والرزق والتدبير. كالنمرود الذي قال: ﴿**أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ**﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فهذا شرك في الربوبية. ونحوُه من يعتقد أن بعض المخلوقات تؤثِّر في حركة الأجسام العلوية، أو بيدها الضر والنفع، ومن يعتقد أن بعض المخلوقات عندها علم الغيب المطلق.

لكن وقع الكلام في تقرير توحيد الألوهية لما سبق في أهميته.